ثلاثية الإبداع

الطهطاوي... هيكل .... الشرقاوي

العدد

سبتمبر ٢٠٠٥

مقدمة

يعيش العالم وخاصة منطقتنا العربية – حالة من التخبط والعشوائية العنيفة ...تتولد عنها الكثير من التشوهات والسلوكيات الأكثر عنفا . وأصبحنا أمام خيارات عديدة أحلاها مر وتعالت صرخات الشكوى والاعتراض والغضب . وانفجرت براكين التساؤلات وعلامات الاستفهام عن كيفية الخروج من هذه المآزق الخانقة التي كادت أن تكسر في داخلنا بوصلة الاتزان وأن تضع على أعيننا الكثير من عصابات الظلم والإظلام ...

والحقيقة أن سوداوية المشهد الآني لم تستطع أن تمحو من داخلنا ذاكرة الإرادة والمقاومة . ولم تستطع أيضا طمس نجيمات الحق والحقيقة .تلك النجيمات التي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن بوصلتنا يجب أن تتوجه إلى القدوة النبيلة التي يمكن أن نحتذيها لأنها - فقط - حائط السد الأخير أمام جحافل الشر والطغيان السؤال الذي يصدمنا هو كيف نصل إلى حائط الصد الأخير في ظل غياب القدوة بعد أن أصبح المجتمع أسيراً لتوعية مدمرة من القدوة السالبة يروج لها الإعلام – من خلال لاعب كرة مشاغب، أو فناني كوميديا العاهات أو مطربي العري كليب........إلخ ؟

ورغم أن هذه القدوة السالبة تمثل جزءاً أساسيا من حالة التخبط والعشوائية التي نعيشها إلا أنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحجب النماذج المضيئة للقدوة النبيلة تلك النماذج التي تستحق منا أن نبذل جهدا أكبر وأن نحارب من أجل إبرازها ووضعها في المكانة التي تليق بها وهذا لا يعني أن هذه النماذج المضيئة في حاجة إلى الظهور ولكنه يعني أننا في احتياج إلى هذه النماذج لكي نعتصم بها أمام طوفان الشر الذي يهاجمنا خاصة وأن العديد من الدراسات العلمية تؤكد بأن غياب هذه القدوة النبيلة – أو تغييبها – هو المسئول عن كثير من الأزمات التي نعانيها من تطرف وإرهاب وإدمان وانفلات أخلاقي وفساد...إلخ ؟

ومن هذا المنطلق فإننا نحاول في هذا الكتاب أن نلقي الضوء عند ثلاثة من النماذج المضيئة التي ملأت حياتنا ثقافة وعلما وتنويرا وانتماءا ووطنية..رفاعة رافع الطهطاوي- د. محمد حسين هيكل – عبد الرحمن الشرقاوي فكل منهم (نموذج للتعميم) ونبراس نهتدي بأنواره وعطاءاته الفكرية والوطنية، **فالشيخ الطهطاوي** شيخ مشايخ المعارف المصرية الذي خلع عليه الشعب لقب السيد الأمير وذلك لأن عطاءاته ملأت سماء مصر وكل الدول العربية والإسلامية بالعلم والثقافة فأصبح أمير التنوير الذي عمل على إيقاظ هذه الأمة من غفلتها وتحول إلى جسر حقيقي ربط بين النهضة الأوروبية وعالمنا العربي والإسلامي الذي تدهور كثيرا خلال فترة الاحتلال العثماني وقد تحول الطهطاوي إلى نموذج يحتذى في كيفية تعامل المثقف العربي المسلم مع الآخر الثقافي حيث تعامل مع الأوروبيين من موقف الندية وليس التبعية لأنه يؤمن في قرارة نفسه أنه بن حضارة فاعلة أضافت الكثير والكثير في البناء الثقافي والحضاري للعالم كله ومن هذا المنطلق يجب أن يتحول الطهطاوي إلى مصل نحقن به كل المثقفين الذين ينبهرون بالثقافة الغربية ويتحولون إلى مجرد موظفي علاقات عامة للترويج للأفكار والثقافات الغربية كما يتحولون إلى مجرد تابع ذليل لهذه الثقافة رغم أننا نمتلك الكثير والكثير الذي يجعلنا نقف دوما موقف الند وليس التابع وهذا هو الدرس البليغ الذي تعلمناه من أمير التنوير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي.

أما **الـدكتور محمـد حـسين هيكـل** فكان النموذج الأمثل لكيفية تثقيف السياسة وليس تسييس الثقافة لأن السياسي المثقف هو النموذج الذي نحتاجه حيث يمتلك الاستنارة والقدرة على إعمال العقل والإصرار على اتخاذ الشورى منهجا وسبيلا وقد استطاع الدكتور هيكل أن يزاوج ما بين الأدب والفكر والسياسة ويكفيه أنه الرائد الأول للرواية العربية من خلال روايته زينب التي صدرت في عام ١٩١٤ ويكفيه في عالم الفكر كتابة العمدة (حياة محمد) الذي قدم نهجا عقلانيا مستنيرا في التأريخ للسيرة النبوية مما يجعل هذا الكتاب وثيقة ضد كل من يتهم الإسلام بالعنف والإرهاب حيث تؤكد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على أن الإسلام دين حب وسلام يقوم على تلاقح الأفكار والتقاء الحضارات ويؤمن بالحوار مع الآخر، وفي عالم السياسة كان الدكتور هيكل أديب ومفكر خانته السياسة حيث جاءت بعض أراءه السياسية صادمة وتدفعنا للاختلاف معها إلا أن ذلك لا يقلل أبداً من قيمته وقامته الأدبية والفكرية خاصة وأن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية .

أما **الأديب الرائع عبد الرحمن الشرقاوي** فقد كان بحق النموذج الأمثل لما يجب أن يكون عليه الأديب والمفكر في تعامله مع الناس ومع السلطة حيث كانت سلوكيات وكتابات الشرقاوي تعبر عن انتماء حقيقي لجموع الغلابة والبسطاء وقد استندت كل كتاباته على عمود فقري يؤكد على فكرة العدالة الاجتماعية كما عاش الشرقاوي دائما على يسار السلطة وهو المكان الذي يجب على المبدع ألا يبرحه وذلك لمصلحة الشعب والسلطة معا .

وقد كانت رحلة الشرقاوي الفكرية نموذجا للاستنارة والقدرة على مراجعة الأفكار حيث بدأ من الفكر الشيوعي وانتهى إلى الفكر الإسلامي المستنير وذلك عندما اكتشف أن الإسلام أكثر رحابة وأكثر احتفاء وتأكيداً على فكرة العدالة الاجتماعية ونصرة الإنسان بشكل عام .

وفي النهاية تؤكد على أن هذه النماذج المشعة هى المشاعل التي يجب أن نسير على ضوء عطاءاتها وهى شموع العلم والمعرفة التي تقف دوما وفي نهاية الدروب المظلمة تسخر من هذا الظلام وتهزمه. فعلينا أن نتمثل هذه النماذج المشعة وأن نتوقف عن لعن الظلام لنتحول إلى شموع حتى ولو كانت صغيرة لتهزم جحافل الظلم والظلام.

محمد الشافعي

رفاعة رافع الطهطاوى

أمير النهضة

النجاح شيء جميل ولكن الأجمل أن يتفوق الإنسان . أما الشيء الذى لا تحده الأوصاف فهو أن يصبح الإنسان (رقم واحد) أي يتبوأ مكانة (الألفة) ويتقدم الصفوف فى إنجاز يخدم البشرية ويضيف جديداً إلى معرفة ، فكل العلماء المصلحين والمكتشفين يعيشون (لذة الكشف) التى تسمو على أية لذة أخري .. ويسكنهم شبق غريب يدفعهم إلى مواصلة الكشف والبناء وتقدم الصفوف، وهكذا عاش (شيخ مشايخ المعارف المصرية) رفاعة رافع الطهطاوي يتقدم الصفوف ويقود أمته ليس فى مجال واحد ولكن فى مجالات كثيرة جاهد فيها بعقله النهم الذى لا يعرف الشبع من كل المعارف – حتى لانت له واستكانت بين يديه واجتمعت لتقيل أمة العرب من عثرتها وتصنع نهضتها الفكرية والثقافية وتدفعها إلى التحليق فى فضاءات المعارف والثقافة .

بعد أن عاشت مكبلة بقيود الجهل والاستبداد فى سجن الدولة العثمانية التى عملت طويلاً على تجريف العقل العربي بالسطو على علمائه وفنانيه وحرفيه ..

ورغم أن البدايات لم تكن تنبأ أبدا بأن يسير الشيخ فى الطرق التى سار فيها أو يحقق الإنجازات التى حققها إلا أن الطهطاوي قد استثمر مواهبه وقدراته – وفى مقدماتها الإصرار – أفضل استثمار كما وضعته أقداره فى معادلة مثلثة الأضلاع تتكون من فرنسا ومحمد علي ورفاعة نفسه الذى ارتبط منذ مولده بحبل سري غريب مع كلاً من فرنسا ومحمد علي فقد ولد رفاعة لأسرة متوسطة الحال فى مدينة طهطا بمحافظة سوهاج ورغم رقة حال الأسرة إلا أنها (منسبة) حيث يتصل نسب رفاعة من جهة الأب بالحسين عليه السلام ومن جهة الأم بالخزرج أنصار رسول الله .

وبعد سنوات من مولده أرسله والده إلى الكتاب ليحفظ القرآن خاصة أن أخواله من مشايخ الأزهر (الشيخ فرج الأنصاري – الشيخ عبد الصمد الأنصاري) وفجأة تضيق كل السبل أما الأب المكافح فيقرر أن يصحب أسرته فى رحلة " كعب داير "

وسط الصعيد بحثاً عن أبواب جديدة للرزق فانتقل من طهطا إلى منشأة المنيدة ثم إلى قنا ثم إلى فرشوط ورغم شظف العيش إلا أن الأب واصل إصراره على أن يتم رفاعة حفظ القرآن وأن يتلقى بعض دروس الفقه .

وقبل أن تجرفنا فيضانات وفيوضات حياة الشيخ نعود إلى معادلته الثلاثية حيث ولد فى ٥ أكتوبر ١٨٠١ وهو العام الذى جاء فيه محمد علي إلى مصر على رأس ألف جندي عثماني للمشاركة فى مقاومة الحملة الفرنسية على مصر – كما تصادف أن يولد رفاعة فى يوم رحيل جنود الحملة الفرنسية على مصر .. وهكذا ومنذ البداية ارتبط هذا المثلث الذى ستدور بين أضلاعه قصة الطهطاوي وتنطلق من خلاله نهضة الأمة .

أن الوالد الذى أنهكته الحياة وأعيته السبل مات فجأة فى عام ١٨١٦ ليقرر رفاعة ووالدته الرحيل إلى مصر المحروسة (القاهرة) وقد سافر فى رحلة نيلية شاقة استمرت أسبوعين ولكنها أتاحت للفتى أن يري كثيراً من المدن والقرى على ضفتي النيل . وفى القاهرة تلقفه أخواله طلاب الأزهر (فراج و محمد وأبو الحسن الأنصاري) وفى الأزهر تتلمذ على يد مجموعة من الشيوخ الأجلاء (الفضائلي – القويسنى - البخاري - البنا - الدمنهوري - حبيش - البيجوري - الدمهوجي) وكان

أبرز أساتذته الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر الذى تولي الفتى بالرعاية والتهذيب كما حبب إليه الأدب والقراءة فى مختلف الفنون والآداب وحدث كثيرا عن شئون الوطن فأخرجه من شرنقة التقليد إلى رحابة التجديد، ولم يتوقف دور الشيخ العطار عند حدود تعليم الفتي ولكنه عمل على أن يؤمن له سبل العيش الكريم فأوجد له العديد من الفرص لإعطاء دروس فى اللغة والفقه لبعض الأثرياء .. وقد سبق الشيخ العطار نفسه أن قام بتدريس اللغة العربية لبعض علماء الحملة الفرنسية .

وبعد ست سنوات من الدراسة فى الأزهر تخرج الطهطاوي عام ١٨٢٢ ليعمل مدرساً لمدة عامين ثم استطاع شيخه العطار أن يقنع محمد على بتعيينه إماماً فى الجيش ذلك الجيش الذى سعي محمد على إلى تقويته خاصة بعد أن قويت شوكته من خلال مذبحة القلعة عام ١٨١١ التى قضي فيها على كل المماليك المناوئين له ولكي يحصل الوالي على هذا الجيش القوي فقد عمد إلى تطوير وتحديث كل مناحي الحياة فى مصر فاستقدم الخبراء من فرنسا وإيطاليا وأرسل أيضا البعثات إلى هاتين الدولتين، فأرسل أولاً بعثة إلى إيطاليا عام ١٨١٣ لدراسة فنون الطباعة بعد أن عرفت مصر المطبعة لأول مرة مع الحملة الفرنسية، ثم أرسل فى عام ١٨١٨ بعثة إلى فرنسا لدراسة الفنون البحرية والحربية ، وفى عام ١٨٢٦ قرر محمد على أن يرسل بعثة كبيرة قوامها ٤٠ دارسا إلى فرنسا لدراسة مختلف العلوم والفنون واستطاع الشيخ العطار أن يقنع الوالي بإرسال رفاعة الطهطاوي ليعمل واعظاً دينيا وإماما لأفراد البعثة ، أي أنه لم يكن عضواً أساسيا فى البعثة ومع ذلك فسوف يطغي اسمه على كل الأسماء فيها ومن حسن الحظ أنه سافر إلى فرنسا عن طريق ميناء الإسكندرية حيث كانت (عروس البحر) بروفة رائعة للتعرف على أجواء أوروبا وذلك بما تحتويه من جاليات أجنبية وسواحل ومعمار يشبه كثيراً الموجود فى أوروبا ولذلك لم يصدم الطهطاوي عندما رست به السفينة فى ميناء مرسيليا الفرنسي ولكنه تذكر نصيحة شيخه العطار بأن يسجل كل ما يراه أو يقرأه وعلى الفور بدأ تنفيذ النصيحة وبدأ أيضا تعلم اللغة الفرنسية، وفى باريس تحول الطهطاوي إلى عين صقر وذاكرة فوتوغرافية وعقل نهم لا يشبع من تحصيل المعارف فراح يقرأ وينظر فيما حوله حتي تعرف على كل مناحي الحياة فى باريس وقد كان أسرع أعضاء البعثة إجادة للغة الفرنسية وقد أهداه أحد أساتذته كتاب (رحلة أنسيس فى بلاد اليونان) مكافئة على حسن تحصيله وعندما رأي الأساتذة المشرفون على البعثة مدي نهم الطهطاوي لتحصيل كل المعارف أرسلوا إلى مصر لضمه بشكل رسمي إلى البعثة وقد تم ذلك وتخصص فى الترجمة من الفرنسية إلى العربية وقد كان من حظ هذه البعثة أن المشرفين عليها من كبار العلماء الفرنسيين ومنهم (جومار- سلفستر ساس – كوسان دي برسفال - الخ) وخاصة العلامة جومار الذى كان أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر والمسئول الأول عن إصدار الكتاب الموسوعة وصف مصر، وقد توقف الطهطاوي أثناء بعثته فى باريس بكثير من التأمل أمام الكثير من ظواهر ومظاهر الفكر والثقافة التي لم يألفها أو يعرفها فى مصر وأهمها علاقة الحاكم بالمحكوم والصحافة وسلاسة الأدب والقضايا الشائكة للفكر الاجتماعي وقضية المرأة وقد تحول الشيخ إلى جسر حقيقي يعمل على تدفق أنوار الفكر والأدب من باريس فى قلب أوروبا إلى القاهرة فى قلب العرب .

وإذا توقفنا بداية عند الطهطاوي كرائد للفكر الاجتماعي فإنه .. يأتي فى مقدمة ثلاث قمم أثروا القرن التاسع عشر حيث كان معه عبد الرحمن الكواكبى وخير الدين التونسي .. ويتسم الطهطاوي بثلاث سمات هي شمولية النظرة والإحاطة بالظواهر الاجتماعية والسياسية من مختلف جوانبها، ثم الجمع ما بين النظر والعمل والفكر والخبرة الواقعية مما جعل فكره شديد الارتباط بالواقع ثم المزج ما بين أرضية

التراث الإسلامي والتعرف على العلوم العصرية الحديثة .. وقد أنطلق الطهطاوي فى تفكيره الاجتماعي والسياسي من احترام العقل كأداة لحل كل مشاكل المجتمع وذلك بالكشف عن أسبابها وبواعثها، كما عبرت كتابات الطهطاوي عن فهم مستنير للحضارة الأوروبية فهو لا يرفضها كما أنه لا يقبلها دون تمحيص ولكنه يعمل على التفاعل معها، ولذلك دعا الأزهر إلى أن يضيف سائر المعارف المدنية إلى جوار علوم الفقه والشريعة، وقد نجح الطهطاوي فى شرح أفكاره من خلال عرضها ضمن سياقها التاريخي مع شرح وتحليل الأحداث التاريخية التى عاصرها أو قرأ عنها، ولم تتوقف أفكاره عند الاستعراض النظري لمختلف قضايا الفكر والأدب ولكنه دخل إلى قلب الإطار العلمي ففى كتابه (مناهج الألباب) الذى نشره قبل وفاته بثلاث سنوات بلور أفكاره الاقتصادية ويمثل هذا الكتاب برنامج التحديث السياسي والاجتماعي حيث طالب فيه بالتفريق بين الأخوة فى الوطن والأخوة فى الدين كما طالب بضرورة تنمية روح المواطنة السليمة، كما قدم من خلاله العديد من الأفكار شديدة التقدمية والتى كانت تعد فى وقتها ضرباً من الجنون حيث طالب بأن يصل ربح الأرض إلى الفلاح وليس إلى الملاك كما طالب بتدخل الدولة لحماية العمال وتحديد أجورهم، وذلك حتى لا يحقد العمال والفلاحون على الأغنياء أي أنه كان يبحث عن العدالة الاجتماعية والسلام الاجتماعي أيضاً كما عالج الطهطاوي فى كتاب مناهج الألباب كل قضايا المجتمع مثل شكل النظام السياسي والأوضاع الاقتصادية وأصول التربية والتعليم وضرورة تدريس السياسة فى المدارس وبشكل أكثر تحديداً فإن الطهطاوي (أبو الفكر) السياسي والاجتماعي المصري الحديث ، كما أنه أول من بذر فكر الديمقراطية فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) كما أنه أول من دعا إلى العدالة الاجتماعية وأول من انتقد البدع والأوهام الفاسدة فى رسالة بعنوان (البدع المستقرة) كما كان أول من دعي إلى النظر فى التراث دون تعصب مع الأخذ من الغرب دون تبعية أي أنه أول من وضع الأساس المنهجي للعلاقة بين التراث والمعاصرة .. وبشكل أكثر تحديدا فإن الطهطاوي هو الأستاذ والمربي لكل من ساهم في نقل مصر والعرب من القرون الوسطي إلى العصر الحديث.

أما عن فضل الطهطاوي على الصحافة فى مصر والعالم العربي فكبير وعميق جداً، خاصة وإنه لم يعرف ما هي الصحافة قبل أن يرحل إلى فرنسا وذلك لأن مصر كلها لم تكن تعرف الصحافة برغم أن نابليون بونابرت قد أتي بالمطبعة إلى مصر عندما جاء على رأس الحملة الفرنسية إلا أنه لم يصدر إلا صحيفتين باللغة الفرنسية وكان توزيعهما محدودا ومقصورا على جنود الحملة ، وقد فشل مشروع الجنرال مينو لإصدار صحيفة (التنبيه) برئاسة تحرير إسماعيل الخشاب، وقد ظهرت الوقائع المصرية لأول مرة فى عام ١٨٢٨ أثناء وجود الطهطاوي فى باريس وكانت تصدر باللغة التركية مع ترجمة ركيكة بالعربية. ولذلك انبهر الطهطاوي عندما رأي وطالع الصحف فى باريس فعكف على قراءتها ولاحظ أنها تتمتع بحرية كاملة فى كل ما تكتبه – هذا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بينما نحن العرب ما زلنا نبحث عن مثل هذه الحرية ونحن فى الألفية الثالثة – ولقد دفعته هذه الصحف إلي أن يقف أمام مصادر القوة ومظاهرها فى هذا المجتمع ولم يكن مبهوراً بكل ما يراه ولكنه يقارن ما بين فوائد وأضرار كل شيء كما شجعته هذه الصحف على أن يقرأ فى كل شيء حتى تعبت عينيه اليسرى وطالب المشرفون على البعثة زيادة راتبه لعلاج عينه ومنعوه من القراءة ليلاً إلا إنه لم يستسلم لنصائحهم وواصل قراءته وإعجابه بتلك (الكازطات) أي الصحف التى تكتب فى أي شيء وكل شيء.

وعندما عاد إلى مصر عام ١٨٣١ أحس بمدي أهمية الصحافة ولكن كان يفتقد الوسيلة التى تدفعه إلى إحداث النهضة الصحفية حيث أن الجريدة الوحيدة وهي الوقائع المصرية تقع تحت يد مجموعة من الأتراك متحجري العقول وعندما واتته الفرصة أحدث ثورة حقيقية وذلك بعد تعيينه رئيساً لتحرير الوقائع المصرية عام ١٨٤٢ فبث فيها الروح الصحفية الحقة وعمد على بلورة رأي عام مثقف ومناهض وذلك بعد أن أصدر الوقائع باللغة العربية وبعد خلص كتاباتها من المحسنات البديعية والسجع والجناس وجعل لغتها سهلة بسيطة لتخاطب أكبر عدد من القراء وقد نبعت كل تطويراته فى الوقائع من إعجابه الشديد بالصحافة الفرنسية وقد أثارت هذه التطويرات مجموعة الأتراك فقاموا بثورة مضادة أقالت الطهطاوي وأعادت الوقائع كما كانت، وكان على الشيخ أن ينتظر طويلاً حتى رأس تحرير مجلة (روضة المدارس) والتى صدر عددها الأول ١٧ إبريل ١٨٧٠ وكانت نصف شهرية .. وقد اهتم فى هذه المجلة بشئون المرأة ودعا القراء إلى المشاركة في تحريرها وبذلك يصبح الطهطاوي (أبو الصحافة) الإعلامية والثقافية ..

أما عن الدور الكبير الذى قام به الطهطاوي فى تطوير الأدب العربي فمتشعب ومؤثر إلى أبعد حد حيث أخرج اللغة العربية من عزلتها الثقافية المزمنة وأوصلها بتيار الفكر الغربي من خلال ترجمة ما يقرب من ألفي كتاب نقل فيها هو وتلاميذه خلاصة المعارف والعلوم الحديثة فأصبح للغة قدرتها على التعبير عن مقتضيات حياة العصر وقاد رفاعة من خلال الترجمة ثورة حقيقية فى تطوير النثر العربي حيث بدأ عهد البساطة والسلاسة والتحرر من قيود المحسنات البديعية .

ورغم أن الطهطاوي كان يكتب الشعر إلا أنه كان ذواقاً للشعر أكثر منه منشداً حيث كان شاعراً أقل من المتوسط ومع ذلك فقد كان له دور كبير فى تطوير الشعر العربي ويتضح ذلك من بعض أشعاره وترجماته ، حيث كان يتعلم الفرنسية على يد شاب مصري مهاجر يكتب الشعر اسمه يوسف أجوب فترجم له رفاعة أحدي منظوماته بعنوان (نظم العقود فى كسر العود) وفيها تخلص من الالتزام بوحدة البحر والقافية وعمد إلى تنويع البحور والقوافي على طريقة الموشحات الأندلسية وكان ذلك بعد إطلاعه على الشعر الرومانتيكي فى فرنسا ..

وعند افتتاح قناة السويس نظم الطهطاوي يقول فيها (وعشق البحر للبحر .. كعشق الدر للنحر – عرائس سفننا تجري . ومن نهوي يواصلنا – لقد عزت منازلنا .. على من ينازلنا) وفي هذه المقطوعة تطوير كبير للشكل والإيقاع عما كان سائداً فى أشعار ذلك الزمن .

أما فى مجال القصة فمن السهل أن نلمح تأثير الطهطاوي على كثير من الأدباء مثل يحيى حقي فى (قنديل أم هاشم) وعند الحكيم فى (عصفور من الشرق) وعند طه حسين (أديب) بل إننا نلمح تجربة الطهطاوي فى الجزء الثاني من كتاب المويلحي (حديث عيسي بن هشام) فكل هذه الكتب تنويعات على اللحن الأصلي لرحلة الطهطاوي إلى باريس وتجربته الفذة فى (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز) كما قام الشيخ رفاعة بترجمة واحدة من أهم الروايات العالمية وهي الرواية الفرنسية (مغامرات تليماك) لمؤلفها (فنلون) حيث عكف الطهطاوي على ترجمة هذه الرواية الكبيرة عندما نفاه عباس الأول إلى السودان خاصة وأن مؤلفها (فنلون) كان رئيسا للأساقفة وزعيما من زعماء الإصلاح وألف كتابا رائدا فى (تربية البنات) واستعار فنلون قصة تليماك من ملحمة الأوديسة لهوميروس . وكان فنلون مربياً لحفيد الملك لويس الرابع عشر وقد ألف له رواية (مغامرات تليماك) بقصد تقويم الحاكم والنصح للأمير . وقد تدخل الطهطاوي فى ترجمة النص لكي يعبر عن آرائه الخاصة فى نظام

الحكم والحاكم المستبد وقد أتخذ من القصة سلاحا أدبيا ناقدا، وقد نشر الرواية فى بيروت خوفا من جبروت عباس الأول الذى كان يكره العلم والتعليم والأدب .

أما فى عالم المسرح فقد ترجم الطهطاوي ثلاث مسرحيات للكاتب الفرنسي (راسين) تحت عنوان (الروايات المفيدة فى علم التراجيدة) وهذه المسرحيات هي (أستير – الإسكندر الأكبر – أفغانية) كما ترجم أربعا من كوميديات موليير ونشرها فى مجموعة (الأربع روايات من نخب التياترات) .

وهناك جانب مهم قد لا يعرفه الكثيرون عن الطهطاوي وهو ابتكاره لفن الأناشيد الوطنية بعد أن أعجب فى فرنسا بنشيد (المارسيليز) وترجمه إلى العربية وقد سار على نفس الدرج وكتب العديد من الأناشيد أطلق عليها اسم (الوطنيات) وكانت لوناً جديداً فى النظم العربي وكان الطهطاوي أول من ابتكر هذه المنظومات فى الأدب العربي ومن منظوماته (يا صاح حب الوطن .. حلية كل فطن) و (ننظم جندنا نظماً .. عجيبا بعجز الفهما) . وقد سار تلميذه صالح مجدي على دربه فألف ١٥ نشيداً قدمها للوالي سعيد وتم تلحينها على الموسيقات العسكرية ومن خلال هذه الأناشيد كان الطهطاوي رائدا فى ميدان البعث الوطني القومي بما أبدع من هذه الأناشيد وبما نظم من قصائد سجلت انتصارات الجيش الوطني ضد الأتراك والأوربيين، وقد استفاد الطهطاوي كثيرا من إطلاعه على الأدب الفرنسي وخاصة الأدب السياسي .

أما درة إنجازات الشيخ فتمكن فى دوره الرائد فى الفكر السياسي وقضية المرأة .. حيث عاش فى باريس خمس سنوات درس خلالها اللغة الفرنسية كما درس التاريخ والطبيعة والكيمياء والرياضة والفلسفة والأدب والجغرافيا والطب والعلوم والهندسة والحربية بينما كان كل طالب فى البعثة يتخصص فى علم واحد . وقبل عودته إلى مصر ثارت فرنسا ضد الملك شارل العاشر وقد فجر الثورة العامة والفقراء والشطار من سكان باريس وكان الملك شارل قد هزم السلطان العثماني فى الجزائر وقد توقف الطهطاوي عند إشكالية كيف يهزم شارل السلطان العثماني وينهزم أمام شعبه الأعزل واكتشف أن الخلاف بين الشعب والملك يرجع إلى الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان التى رفعت الثورة الفرنسية راياتها منذ سنة ١٧٨٩ وكانت ثورة أهل باريس ١٨٣٠ ضد شارل العاشر قد تفجرت لأنه فرض الرقابة على الصحف بدون الرجوع إلى مجلس البرلمان . وتأكد الشيخ أن انتصارات الخارج لا تبرر للحاكم إهدار حقوق الإنسان داخل بلده . وقد استوعب الطهطاوي هذه الثورة التى كانت تبحث على الحرية والديمقراطية والإخاء والمساواة .. وشعر الشيخ بحسرة كبيرة لأن مصر فى ذلك الوقت كانت تحكم حكماً مطلقاً مثل كل الولايات العثمانية. ورغم أن محمد علي كان مستنيراً مقارنة بغيره من الحكام العثمانيين اللذين لم يكن لديهم إلا السيف والسوط إلا أن حكم محمد علي كان بعيداً جداً عن نظام الحكم فى فرنسا ذلك النظام الذى يحكمه الدستور . وقد كتب رفاعة صفحات رائعة عن الدستور الفرنسي فى كتابه (تخليص الإبريز) ثم ترجم هذا الدستور كاملاً وقد اكتشف الشيخ من خلال هذا الدستور أن الولايات العثمانية تعيش عصر الرق الأبيض والأسود ومتخلفة فكريا واجتماعيا وسياسيا عن القرن التاسع عشر بأربعة قرون على الأقل . وقد كتب الطهطاوي كثيرا عن الحرية وتمني أن تحصل عليها الرعية العثمانية من خلال دستور مثل الدستور الفرنسي الذى يجعل الملك غير مطلق التصرف ورغم انبهاره بما رأي فى باريس ودعوته إلى السير على نبراسه إلا أنه لم يفقد أبدا أصالته وقيم مجتمعه ودينه واستطاع أن يفصل بين مميزات حضارة الغرب وبين عيوبها كما استطاع أن يفرق بين الغث والثمين فى تقاليدنا الشرقية ولذلك أخذ أحسن ما فى الغرب وترك السيئ فيه وإن ظل طوال الوقت مبهورا بعلاقة الحاكم

بالمحكوم وهذا انطلاقا من اهتمامه بعلم (البوليتيقا) أو السياسة رغم أن هذا العلم لم يكن ضمن اهتمامات البعثة . فكان أول عربي يتحدث عن الدستور والفصل بين السلطات والحقوق المدنية وتعدد الأحزاب كما أكد على أن العدل أساس الحكم وأن ذلك لا يتناقض مع جوهر الإسلام وقد دعا إلى تدريس علم السياسة فى المدارس، ورغم إعجابه بحرية العقيدة الدينية فى فرنسا إلا أنه لم ينفصل أبداً عن جذور دينه الإسلامية .

ورغم انبهاره بفرنسا إلا أنه كان يقول لو اعتني المصريون بمصر كما يعتنى الفرنسيون بفرنسا لأصبحت مصر أفضل من فرنسا . ولم تقف تجربته فى فرنسا عند المشاهدة والإعجاب والنظرة النقدية ولا عند الكتب التى ألفها وترجمها وإنما عمل على تلخيص عصارة ما أدركه ، وسعي ليجعله موضع التطبيق فى مصر وظهر ذلك فى مشروعات وأفكار كثيرة من أهمها مدرسة الألسن وكان يري أن الخطوة الأولي فى بناء مصر الحديثة تبدأ بنقل الحضارة الأوروبية وجعلها فى متناول عامة المواطنين ولذلك ركز جهده فى الترجمة فأنشأ مدرسة الألسن لإعداد جيل جديد من المترجمين وجعل الدراسة بها خمسة أعوام ودرس بها اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والتركية والفارسية والعربية وتخرج على يديه أكثر من مائة مترجم ترجموا أكثر من ألفي كتاب ثم دعا إلى الإكثار من مدارس التعليم الإبتدائى وألف كثيرا من كتب هذه المدارس وكان يرأس لجنة امتحانات القطر . كما دعا إلى نشر التعليم بين العمال والفلاحين . وبذلك يصبح الطهطاوي الأب الشرعي لحركة اليقظة والإحياء التى أدخلت أمتنا إلى العصر الحديث . كما كان المبشر بالفكر الديمقراطي الليبرالي وتكمن أهم ملامح الفكر الذى بشر به الطهطاوي فى ديمقراطية الفكر السياسي ، الفصل بين السلطات (تشريعية – قضائية – تنفيذية) والدعوة إلى تجديد فركنا التشريعي ليزاوج بين التراث الإسلامي والتشريع الأوروبي ولذلك أنشأ قسما فى مدرسة الألسن لدراسة الفقه الإسلامي والقوانين الأجنبية ، كما أكد على أن التمدن يرتبط بحرية الفكر والبحث العلمي وحرية إبداء الرأي ونمو الفكر السياسي . كما أكد على تقييد السلطة بالقانون وعلي قيمة الحرية للفرد والوطن ولجميع الأمم كما أكد على قيم الحرية والالتزام وقد شاعت فى كتاباته عبارات الوطن والوطنية والأخوة الوطنية والمجتمع المدني وقد استقى كل هذه الأفكار من الحركة السياسية فى فرنسا ولذلك أصبح رائد الاتصال الذهني بالغرب ومفجر التفكير فى تغيير الأوضاع فى كثير مما كان مسلماً به وكان طوال إقامته فى فرنسا صادقاً فى رصده لما يراه ومتحفزا وفاحصا وناقدا لما يراه . وبشكل عام يمكننا أن نؤكد على أن الطهطاوي قد أرسي أسس الثقافة السياسية والتربية فى حياتنا المعاصرة كما أنه زعيم حركة فكرية تجديدية كانت الأساس الذى ارتكزت عليه نهضة مصر الفكرية المعاصرة .

أما عن الدور الرائد الذى لعبه الطهطاوي فى مساندة قضايا المرأة .. فتؤكد كل الوثائق والمراجع التاريخية أنه قد سبق قاسم أمين فى كثير مما جاء فى كتابيه تحرير المرأة ١٨٩٩ والمرأة الجديدة ١٩٠٠ حيث سبق الطهطاوي بالقول أن عفة المرأة ترجع إلى تربيتها وليس إلى ملابسها . كما سبق فى تأكيده على مساواة الرجل والمرأة وطالب بإعادة النظر فى منع المرأة من تولي الحكم، كما حبذ مشاركة المرأة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع وارتيادها للأماكن العامة، ودافع عن تعليم المرأة العربية وقيمها بالأعمال التى يقوم بها الرجال ولم يكتفى بالمناداة بالتطور ولكنه ساهم فى التطوير فبعد صدور كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) تم إنشاء أول مدرسة للبنات وهي مدرسة السيوفية التى أنشأتها زوجة الخديوي إسماعيل (جشم ألفت هانم) فى عام ١٨٧٣ .

وبعد أن طوفنا في بعض العوامل التى حظى فيها الطهطاوي بالريادة مؤكدا على أن ريادته امتدت إلى عوالم أخري يأتي فى مقدمتها التعليم والآثار وترجمة العلوم فقد أنتهي من تأليف كتابه العمدة (تخليص الإبريز) عـام ١٨٣٠ ليجتاز به الامتحان النهائي للبعثة ويعد هذا الكتاب المعادل الموضوعي لكتاب وصف مصر الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية عن مصر وقد اهتم محمد علي بالكتاب وطلب تعميمه على كل المؤسسات، وعاد الطهطاوي إلى مصر عـام ١٨٣١ ليصبح أول مصري يعمل مترجما فى مدرسة الطب وفى عـام ١٨٣٤ أنشأ مدرسة الإدارة التى كانت نواه مدرسة الحقوق وفى عـام ١٨٣٦ أنشأ مدرسة الألسن وتولي نظارتها ١٣ عاماً كاملاً واستطاع مع تلامذته أن يقوم فى حياة أمته بالدور الذى قام به المترجمون فى العصر العباسي . وفى عـام ١٨٤١ أنشأ قلم الترجمة ليتحول مع مدرسة الألسن إلى نافذتين أطل منهما العقل العربي على الحضارة الأوربية .

وقد ترجم فى الطب والعلوم والقانون والهندسة والشعر والأدب وألف فى فنون شتى حيث أتسمت مؤلفاته بالموسوعية ، وعندما أنشأ سليمان باشا الفرنساوي مدرسة الحربية جعل الطهطاوي وكيلاً لها ثم أصبح ناظراً للحربية واتجه بها إلى الدراسات المدينة وقد تمت ترقيته إلى الأميرالاي ليحمل لقب بك .

وعندما بدأ ترجمة العلوم لم تكن هذه العلوم معروفة فى مصر ولم تكن اللغة العربية تستوعب مثل هذه العلوم فبذل جهدا كبيرا فى المجالين واستطاع أن يفرخ ثلاثة أجيال من المترجمين سيطروا على شئون الثقافة فى مصر واحتلوا كل وظائف الترجمة فى مصالح الدولة .

أما دوره فى الحفاظ على الآثار المصرية فبدأ منذ أن كان فى باريس حيث شهد المعركة العلمية التى انتصر فيها شامبليون بعد كشف أسرار اللغة الهيروغليفية كما عاصر قيام شامبليون بتنظيم قسم الآثار المصري فى متحف اللوفر عـام ١٨٢٧ . كما أعترض بشدة على قرار محمد على بإهداء مسلة فرعونية إلى فرنسا وبعد عودته من باريس قدم إلى محمد علي مشروعاً جريئاً لحماية الآثار نشر فى الوقائع سنة ١٨٣٥ ونص على أن تسلم لمدير مدرسة الألسن جميع الآثار التى يجدها الأفراد فكان أن تأسس أول متحف مصري للآثار فى فناء مدرسة الألسن .

وفى النهاية نؤكد على أن الطهطاوي سوف يظل الرائد الأعظم فى حركة النهضة العربية الفكرية والثقافية خلال العصر الحديث ويكفى أن أول من زاوج ما بين الأصالة والمعاصرة من خلال إحياء كتب التراث وترجمة كتب الغرب وسوف يظل الطهطاوي الرائد الأعظم فى مجال الإصلاح الاجتماعي وإذا كان البعض قد عاب عليه أنه لم يكن ثوريا بالقدر الكافي إلا أن الحقيقة أنها كانت ثوريا كبيرا بمقاييس الزمن الذى عاش فيه ولكنه لم يكن ثوريا بمقاييس جمال الدين الأفغاني ويكفيه أنه لم يتنازل رغم أن بعض معاصريه قد تنازلوا كثيرا، كان الطهطاوي زعيماً للإصلاح الاجتماعي والفكري ناضل كثيرا وطويلاً فى سبيل تحقيق رسالته مما جعل العامة يخلعون عليه لقب (السيد الأمير) أما أهم الدروس نتعلمها من سيرة الطهطاوي فتكمن فى أن استنارة المثقف والأديب لا يمكن أن تزدهر إلا فى ظل (حاكم مستنير).

هـيكل ... أديب خانتـه السـياسـة

يحلق الأديب فى فضاءات الإبداع بجناحى الخيال واللغة .. وهو فى كل حالاته حر طليق حتى، ولو كان يكتب عن الواقع .. بينما المؤرخ يلزم نفسه بكثير من القيود أهمها الحيادية والإنصاف وذلك لأنه قاض يجلس على منصة التاريخ ، وعليه أن يقدم للأجيال الجديدة وقائع التاريخ دون أن يعمل فيها هواه وقناعاته الشخصية. أما السياسة فهى فن الممكن ، ومن ثم فإن السياسى يتسم بكثير من المرونة والمراوغة حيث يسعى بشكل دائم ليكون فى الصدارة لكى يضع أفكاره موضع التنفيذ. وتؤكد النظرة السريعة على أن الأدب والتاريخ والسياسة أضداد ومتناقضات من الصعب بل من المستحيل أن تجتمع فى بوتقة واحدة.

ورغم هذا فقد استطاع الدكتور محمد حسين هيكل أن يحقق هذا المستحيل، فهو الأديب والمؤرخ والسياسي وليس هذا فقط، ولكنه أيضاً المحامى والصحفي .والكتابة عن تلك الشخصية مترامية الأطراف تبدو شديدة الصعوبة لأن مثل هذه الشخصية الموسوعية تجعل عملية الإلمام بتفاصيلها مهمة شاقة خاصة فى ظل تأرجح ميزان الإعجاب أمام شخصية الدكتور هيكل الذى لابد وأن نعجب به مؤرخاً وأديباً وصحفياً. ولكننا لابد وأن نختلف معه سياسياً.

وحتى لا نستبق الأحداث تبدأ حكاية شيخ مشايخ الرواية العربية من أول سطورها، حيث ولد محمد حسين هيكل في قرية (كفر غنام) مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية يوم ١٨٨٨/٨/٢٠، وكانت أسرته من كبار ملاك الأراضي في هذه المنطقة ، حيث كان والده عمدة للقرية، وبعد سنوات قليلة من ولادته ألحقه والده بكتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم، ثم ذهب إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة الجمالية الابتدائية ، وبعدها انتقل إلى مدرسة الخديوية الثانوية بالسيدة زينب ، وبعد إنهائه لدراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ، وكان ذلك عام ١٩٠٥ ليضع قدمه على الطريق التى تصنع الوزراء والقادة .

وأعجب هيكل بأفكار وشخصية أحمد لطفى السيد - زعيم حزب الأمة ورئيس تحرير الجريدة - وبتشجيع من لطفى السيد انضم هيكل إلى كتاب الجريدة ليجد نفسه مع طه حسين ومصطفى عبد الرازق ، وقد بلغ تأثره بلطفى السيد أقصى مدى حيث كان يرى فيه (أباه الروحى) وقد دفعه لطفى السيد لدراسة الحقوق بدلاً من الهندسة وضمه إلى أسرة (الجريدة) التى كانت مدرسة فكرية لها روادها وتلاميذها ، كما كانت جامعة حرة للثقافة والفكر عميدها لطفى السيد، وقد كتب هيكل عن تجربة الجريدة فقال: "لم يكن هناك منتدى ثقافى تلقى فيه المحاضرات ويسترشد فيه الشباب بأئمة الفكر والقانون والأدب والسياسة ، والاجتماع كمنتدى للجريدة".

بعد أن أنهى دراسته فى مدرسة الحقوق ذهب إلى باريس ليحصل على الدكتوراه ، وقد تصادف أن وصل إلى باريس يوم ١٩٠٩/٧/١٤ ، ليجد فرنسا كلها تحتفل بالعيد القومى الذى يوافق ١٤ يوليو من كل عام .

وفى باريس عاش هيكل مرحلة مهمة من حياته شكلت الكثير من وجدانه وأفكاره حيث أعجب بالأديب الفرنسى "(أناتول فرانس) وكتب عنه الكثير وظل طوال عمره يردد مقولة فرانس "إن كل قانون يحد من حرية إبداء الرأي هو قانون مجرم وأنه مهما حوت الكتابة مما يضاد عاداتنا ومعتقداتنا فالواجب أن تبقى حرة إلى أقصى درجات الحرية " لقد كان هذا فى بداية القرن الماضى وبعد مرور كل هذه السنين ما زلنا نحلم بأن تتحول مثل هذه المقولات إلى واقع فى عالمنا العربى.

المهم أن هيكل راح يكتب مشاهداته وملاحظاته عن المرأة والدين والناس وكل مناحي الحياة الباريسية فى صورة يوميات شخصية لم ينشرها فى حياته ولم تنشر إلا فى عام ١٩٩٦ تحت عنوان "مذكرات الشباب" ١٩٠٩- ١٩١٢، وذلك عندما أقام المجلس الأعلى للثقافة احتفالية كبيرة إحتفاءً بعطاء الدكتور هيكل، قد حصل على الدكتوراه عام ١٩١٢ ، وكان عمره ٢٤ سنة فقط وكان موضوعها (دين مصر العام) وبعد حصوله على الدكتوراه عاد إلى مصر ليبدأ رحلة طويلة فى عوالم المحاماة والصحافة والأدب والتاريخ والسياسة ، وسوف نحاول التوقف عند كل عالم من هذه العوالم .

لم تكن للدكتور هيكل نجاحات كبيرة فى عالم المحاماة ، حيث عاد من باريس عام ١٩١٢ ليعمل بالمحاماة فى المنصورة لمدة عشر سنوات كاملة أفادته بعد ذلك سواء فى كتابة التاريخ أو فى عالم السياسة .

وقد شهدت هذه السنوات اشتعال الحركة الوطنية وتصاعدها ، حتى قامت ثورة ١٩١٩ ، وقد أصدر د. هيكل فى عام ١٩٢١ دراسة فى جزءين عن جان جاك روسو وأعماله ، تم إنشاء حزب الأحرار الدستوريين فى عام ١٩٢٢ بعد الخلافات الشديدة بين سعد زغلول وعدلى يكن ، وتولى يكن رئاسة حزب الأحرار واختار أعضاؤه الدكتور هيكل رئيساً لتحرير جريدة الحزب السياسية ليبدأ بشكل عملى مشواره مع عالم الصحافة، بعد أن ظل لسنوات طويلة مجرد كاتب، فأصبح رئيساً للتحرير.

وفى عام ١٩٢٦ انشأ أول مجلة ثقافية وهى (السياسة الأسبوعية) التى تحولت إلى أهم مصدر لدراسة حياتنا الثقافية فى الربع الثانى من القرن العشرين، وقد أكتسبت (السياسة) كجريدة مكانة متقدمة فى عالم الصحافة لم يكتسبها الحزب فى عالم السياسة خاصة وأن الحزب كان يزخر بالكثير من المفكرين والمثقفين يأتي فى مقدمتهم د. هيكل ، و د. طه حسين.

هيكل: **اكتشاف ثقافة التقدم**

أما هيكل الأديب ، فقد اكتفى بفضل الريادة وهو فضل كبير ، حيث كان أول من كتب الرواية بمعناها الفنى ، وذلك عندما كتب أثناء بعثته فى باريس رواية (زينب) وقد نشرها فى عام ١٩١٤ تحت توقيع (مصرى/ فلاح) وربما لم يكتب اسمه الحقيقى انتظاراً لرد الفعل على كتابة مثل هذا الشكل الأدبي الذى لم يكن معروفاً من قبل. ورواية زينب قصة واقعية حدثت في قرية كفر غنام حيث كان هيكل هو بطلها الحقيقي والذي ظهر في الرواية تحت اسم حامد. وتعد زينب قفزة عملاقة على فن (المقامات) الذي كان يكتفي بالسرد ولذلك كان هيكل فخوراً بزينب لأنه فتح بها فتحاً جديداً في عالم الأدب، كما كانت ثمرة حنينه للوطن مما جعله يجتر ذكرياته في قريته، وقد اعترف هيكل بأن قصة زينب حقيقية وحدثت وقائعها عندما كان في (سنة ثالثة حقوق) وهذا الاعتراف ينفي ما ذهب إليه المستشرق الفرنسي (هنري روسو).. هذا ورغم أن التأثر ليس عيباً خاصة وأن زينب تحمل أيضاً كثيراً من ملامح (غادة الكاميليا).. المهم أنه عندما صدرت الطبعة الأولى من زينب عام ١٩١٤ لم تحدث أثراً في الحياة الثقافية على عكس الطبعة الثانية التي صدرت في عام ١٩٢٢ عندما كان هيكل رئيساً لتحرير (السياسة) وفي عام ١٩٢٨ تحولت زينب إلى فيلم سينمائي ناطق من إخراج محمد كريم وقد فتح هيكل بروايته باباً جديداً في الأدب العربي حيث كتب

المازني روايته إبراهيم الكاتب (١٩٣١) وكتب الحكيم "عودة الروح" ١٩٣٨ وكتب طه حسين "أديب" ١٩٣٨ ثم كتب العقاد "سارة" ١٩٤٣.

وقد حظيت زينب بالعديد من الدراسات والرسائل العلمية (ماجستير- دكتوراه) كما تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات الأجنبية.

ولم يعد هيكل إلى الرواية بعد زينب إلا في قصته الطويلة "هكذا خلقت" وإن كان قد جمع بين التاريخ والرواية عند كتابته لدراساته الإسلامية.

وهناك أكثر من تفسير حول توجه هيكل إلى الكتابات الإسلامية أولها أنه استنكر محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين بإدخال الخرافات والمعلومات المغلوطة في الكتب التي تقدم التاريخ الإسلامي فقام بالرد على هذه المغالطات من خلال كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأسلوب علمي يعتمد على تحليل الوقائع المنسوبة إلى السيرة وتخليصها مما شابها وشوهها من مغالطات مقصودة وقد انتهى د. هيكل من (كتابه العمدة) حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) عام ١٩٣٥ وبعده أصدر مجموعة كتبه (الصديق أبو بكر- الفاروق عمر- عثمان بن عفان- في منزل الوحي- الحكومة الإسلامية- بين الخلافة والملك- الإيمان والمعرفة)

أما التفسير الثاني لاتجاه د. هيكل إلى الكتابات الإسلامية فينطلق من نظرية فكرية تؤكد على أن فكرة القومية المصرية قد ظهرت أثناء الحرب العالمية الأولى وبلغت ذروتها مع ثورة ١٩١٩. ولكن هذه الثورة فشلت في حل الأزمة السياسية (الاستقلال) وفشلت أيضاً في حل الأزمة الاجتماعية (الفواصل العنيفة بين القلة الثرية الحاكمة و بين الغالبية العظمى من المعدمين المقهورين) مما حدا بأقطاب الاتجاه الديني إلى طرح فكرة الخلافة الإسلامية التي لاقت رواجاً عند الناس ومن هنا نشأ اتجاه واسع لتقديم التراث الإسلامي وقد حمل راية الريادة في هذا الاتجاه كل من د. هيكل- العقاد- طه حسين- وذلك كترشيد للتيار الداعي للخلافة من خلال تقديم الأفكار الليبرالية.

وسواء أكان التفسير الأول أو الثاني فالمهم أن هيكل قد أثرى المكتبة العربية بالعديد من الدراسات الإسلامية وتحولت إلى مراجع لا يمكن لأي دارس أو باحث أو حتى قارئ أن يستغنى عنها. وبعد نشر كتاب حياة محمد اتهم بعض غلاة العلمانية واليسار الدكتور هيكل بالرجعية فرد عليهم في مقدمة كتابه (في منزل الوحي) قائلاً: " وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي ولم أضعه- كما يقولون- موضع النقد العلمي. وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبي الكريم جماعة من المبشرين وأخرى من المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين. وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أزعم أمامهم في حياة محمد نهجاً غير ما التزمت به مسبقاً من أنني طليق من الجمود عدو للجمود. وأنني أومن بحرية الرأي وأعتبرها الأساس ولا أساس غيره لمن يريد معرفة الحقيقة وهم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر و انقلبت إلى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه وكنت قبل ذلك أريد توجيهه وهدايته.

ويحدد الدكتور هيكل أهم ملامح المنهج العلمي الذي اتبعه في كتابة حياة محمد فيقول "لست مع ذلك أحسبني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد بل لعلي أكون أولى إلى الحق إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة وتقتضيك هذه الطريقة العلمية الحديثة إذا أردت بحثاً أن تمحو عن نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والتدريب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت النتيجة علمية لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت الإنسانية إليه في سبيل تحرير الفكر.

ومن خلال هذا المنهج القائم على الاستقراء والتحليل استطاع د. هيكل أن ينقي السيرة من الشوائب التي دخلت عليها نتيجة المنهج التاريخي القديم الذي يقوم على الرواية والتواتر دون أن يعني بالفحص والتمحيص.

وبشكل عام فقد كان هيكل (المفكر) يؤمن بالحرية في مختلف صورها وخاصة حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمي وتأكيد الفردية و دور الفرد في تطور المجتمع كما دعا إلى العدل الاجتماعي ووقف مع كل قضايا التنوير حيث وقف مع الشيخ على عبد الرازق سنة ١٩٢٥ أثناء أزمة (الإسلام وأصول الحكم). كما ساند طه حسين في قضية (في الشعر الجاهلي) ١٩٢٦. وإن كانت المساندة قد تأخرت لبعض الوقت وذلك لأن الأحرار الدستوريين كانوا في الحكم أثناء الأزمة وكان عدلي يكن رئيساً للوزراء وقد حاول هيكل أن يحل المشكلة بهدوء عن طريق الحكومة كما كان محمد نور وكيل النيابة الذي حفظ القضية أحد أعضاء الجهاز الفني في حزب الأحرار الدستوريين.

كما كان هيكل عقلاً كبيراً استطاع من خلال كتاباته أن يشخص جوهر أزمتنا الحضارية بمنتهى الدقة ومازال تحليله صائبا حتى الآن. كما كان شديد الإيمان بالحرية ويرى أن غيابها هو السبب الرئيسي لتخلفنا ويقول فى ذلك أعتقد أنه ما لم تعم الحرية بلدنا ويتمتع بها النساء والرجال على السواء فإننا سنبقى فى ذلنا الذى نحن فيه إلى الأبد وتاريخنا نحن وتاريخ العرب شاهد على عدل ما أقول كما كان يؤكد على أن كل الشرور تعود إلى آفة الاستبداد ،

ورغم كل هذا الإيمان بحرية الفكر والعلم إلا انه كان ممثلا لفكر (النخبة) منذ انتسابه لحزب الأمة ثم انضمامه للأحرار الدستوريين الذى يعبر عن النخبة الثقافية والاجتماعية أيضا ورغم أن فكر النخبة ليس جماهيريا إلا أن د . هيكل قبل هذه المخاطرة اتساقا مع معتقداته الشخصية ومع جذوره العائلية كما أن هذا الفكر يحظى بالاحترام والتقدير عند النخبة المثقفة ولم يكن هذا غريبا على د. هيكل الذى كان من طلائع أبناء الطبقة الوسطى المصرية التى نادت بأن تكون مصر للمصريين حيث كان واحد من زعماء المدرسة المصرية وقد دعا إلى ما يسمى الأدب المصرى وكان مغاليا فى حب مصر وتاريخها ،

ورغم هذا التطرف فى فكرة (المصرية) مقابل فكرة (القومية) إلا أن د.هيكل من دعــاة (الوسطية) ويرى فيها موقفا فكريا يجمع بين الروح والمادة ولاتناقض بينهما ولا انفصال وذلك على عكس الحضارة الغربية التى تقوم على أساس من فكر فلسفى مادى وكان يقول " فى رأينا أن الإيمان والعلم لا يتناقضان وأن فى النفس الإنسانية ما يتبع لها جميعا " ومن هذا المنطلق كان يؤمن بأن العلم هو أول مكون للثقافة وأن الفلسفة هى المكون الثانى وقد بنى هيكل ثقافته على كتب الأدب العربى القديم وتمثل التراث العربى تمثلا صحيحا كما قرأ عيون الأدب الانجليزى والفرنسى لإجادته للغتين ومع ذلك فقد اتخذ موقفا نقديا من التراث ومن الفكر الغربي ودعا إلى ضرورة مراجعة الثقافة الغربية قبل نقلها إلى مصر ،

وبشكل عام فان د. هيكل اعتمد على الروافد الثقافية التى كانت تملأ الحياة المصرية وهى الأفكار الحديثة المتصلة بالأدب والحرية الوطنية وازدياد الوعى القومى كما ساهم التيار العربى مساهمة كبيرة فى تكوين ثقافته حيث قرأ لأعلام الأدباء والفلاسفة فى الغرب واستطاع أن يطبع هذا التيار الغربي بطابع البيئة العربية هذا إضافة إلى أن دراسته للدين وعلومه أتاحت له أن يقدم كتابات مهمة فى الإسلاميات وقد سار فى كل خطواته على خطى المدرسة التجديدية وأعلامها الأفغانى، محمد عبده، احمد لطفى السيد وكل هذا الزخم الإنساني والثقافى جعل هيكل سمحا فى معاركه حيث كان يؤمن بأن الخصومة فى المعارك العلمية والسياسية ليست عداء لهذا أو استعداء

لذاك لم تقتصر اجتهادات د. هيكل على الفكر فقط ولكنه قدم اجتهادات رائدة فى مجال تطوير اللغة العربية حيث كان يهدف إلى تهذيب اللغة العربية وجعلها أداة طبيعة للتعبير عن حاجات المدينة العصرية ومبادئها وراح يمرن نفسه على التبسط بحثا عن أسلوب جديد وليثبت قدرة اللغة على التعبير عن كل القضايا بيسر وسهولة ولخص كل هذا فى كتابه (أوقات الفراغ) قابلا كلما سهلت الألفاظ كانت أعذب سماعا واقرب للقلب وأحب للنفس ورغم زيادة وتميز د. هيكل الأديب والمؤرخ والصحفى إلا أن هيكل السياسى يجبرنا على أن ندخل فى شبكة كبيرة من علامات الاستفهام حيث تعلم السياسة على يد احمد لطفى السيد فى حزب الأمة وسار على دربه فى المناداة بالقومية المصرية ثم انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين منذ بدايته عام ١٩٢٢ على يد زعيمه عدلى يكن وتدرج د٠ هيكل فى أروقة الحزب حتى أصبح رئيسا له فى عام ١٩٤٣ وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وقد تقلد العديد من المناصب السياسية منذ عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٥٠ وبدأ كوزير دولة فى حكومة محمد محمود باشا ثم أصبح وزيرا للمعارف ثم وزيرا للشئون الاجتماعية كما تولى رئاسة وفد مصر فى الأمم المتحدة وأخيرا تولى منصب رئيس مجلس الشورى منذ عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٥٠ ٠٠ ورغم قيمة وقامة د٠ هيكل فى عالم الأدب والتاريخ إلا أن دوره السياسى يعانى الكثير من التشويش فى الذاكرة الوطنية وذلك لارتباطه بحزب الأحرار الدستوريين ذلك الحزب الذى ارتبط منذ نشأته بعلاقات وثيقة مع الملك ومع الإنجليز وكان يقدم نفسه على أنه (البديل الجاهز) لحزب الوفد (حزب الأغلبية) وكان الأحرار الدستوريين يشاركون وبقوة مع الملك والإنجليز فى إزاحة الوفد عن الحكم كلما جاء بإرادة الشعب ورغم أن رجال حزب الأحرار الدستوريين هم الذين وضعوا دستور ١٩٢٣ إلا أن الحزب كان أول من عطل الدستور فى عام ١٩٢٤ ثم كان الحزب أول من أوقف العمل بالدستور عامى ١٩٢٨ – ١٩٢٩ كم كان حزب الأحرار الدستوريين أول من تواطآ فى تزوير انتخابات ١٩٣٨ كما كان الحزب أو الأحزاب استجابة لرغبات فؤاد وفاروق لأبعاد الوفد عن الحكم ورغم تقدمية هيكل الأديب والمؤرخ إلا انه كان رجعيا فى كثير من توجهاته السياسي واكبر دليل على ذلك عندما تقدم عضو مجلس الشيوخ محمد خطاب من الحزب السعدى بأول مشروع للإصلاح الزراعي فى مصر عام ١٩٤٥ قاد حزب الأحرار الدستوريين حملة لواد القانون واستطاع استمالة حزبى الوفد والهيئة إلى جانبه وعلق د٠ هيكل على هذا القانون قائلا(مجلس الشورى وجد لتحطيم المشرعات الثورية)

ورغم العلاقات الودية التى كانت تربط د٠ هيكل بالملك فاروق وثنائه على الملك فى أكثر من مناسبة إلا أن العلاقة بين الرجلين تحولت إلى ما يشبه العداوة فى عام ١٩٥٠ حيث كان د٠ هيكل تواقا لأن يكون رئيسا لوزراء مصر وللحق فقد كان الرجل أفضل من كثير تولوا الوزارة قبله وبعده مع هذا لم يحقق له الملك فاروق هذه الأمنية وعندما يئس د٠ هيكل من تحقيق أمنيته الشخصية إضافة إلى يأسه من حقيق أي إصلاح انضم إلى جموع الشعب الغاضبة من الملك وقد تمثل غضب د٠ هيكل فى ثلاثة مواقف أولها قبول ومناقشة استجواب الأسلحة الفاسدة بعد نكبة ١٩٤٨ ثم قبول ومناقشة استجواب العضو مصطفى مرعى والذى يطعن فى الذمة المالية لـ (كريم ثابت) مستشار الملك الذى تلقى رشوة فى مشروع مستشفى المواساة وكان بامكان د٠ هكيل كرئيس لمجلس الشورى أن يمنع هذين الاستجوابين ولكنه وافق على مناقشتهما ما أحرج حاشية الملك واحرج فاروق نفسه والذى أمر بحل مجلس الشورى فى ١١ يونيه ١٩٥٠ ورد الدكتور هيكل بإلقاء خطاب فى نادى حزب الأحرار والذى كان يرأسه انتقد فيه تدخل رجال الحاشية فى شئون الحكم ، مما زاد من حنق الملك وغضبه وظل د. هيكل بعيداً عن المناصب السياسية بعد حل مجلس الشورى ،

وخاصة وأن هذه الفترة شهدت مصالحة شهيرة بين الملك وحزب الوفد انتهت بكارثة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، ثم تصاعدت الأحداث سريعة ولاهثة حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر ، وكان من الطبيعى أن تستبعد الثورة الدكتور هيكل السياسي من كل حساباتها وذلك لتاريخ حزبه فى وأد إرادة الأغلبية وأيضاً لتوجهات الثورة نحو القومية العربية والإصلاح الزراعى وإزالة الفوارق بين الطبقات والتى تتعارض مع توجهات د. هيكل فى المناداة بالمصرية وبضرورة وجود فكر النخبة وقد أصدرت الثورة قراراً بالحرمان السياسى لكل من تولى الوزارة فى السنوات العشر التى سبقت قيام الثورة وكان د. هيكل ممن طبق عليهم هذا الحرمان فاعتكف الرجل وتفرغ لكتابة مذكراته فى عالم السياسة ، والتى صدرت فى ثلاثة أجزاء بعنوان (مذكرات فى السياسة المصرية) من عام ١٩١٢- ١٩٥٣ وقدم من خلالها تجربته السياسية الطويلة على مدى ما يقرب من النصف قرن.

وقد أصدر الدكتور هيكل فى حياته ٢٢ كتاباً فقط أما بقية كتبه فكانت مقالاته التى تم جمعها بعد رحيله فى ٨ ديسمبر ١٩٥٦ وإصدارها فى مجموعة من الكتب.

ورغم مرور ما يقرب من النصف قرن على رحيل العلامة د. محمد حسين هيكل ، إلا أن بصماته ما زالت واضحة جلية فى كل المجالات التى أرتادها أو عمل بها فبصماته كمحام ما زالت واضحة فى دفاعه عن الإسلام وقادته العظام ذلك الدفاع الذى ظهر جلياً فى كتبه (حياة محمد/ أبو بكر الصديق/ عمر بن الخطاب/ عثمان بن عفان)، وما زالت أيضاً بصماته كصحفى واضحة مثل الشمس فى إعداد مجلة السياسة الأسبوعية والتى تأتى فى مقدمة الصحف الثقافية المصرية ، كما أن مهنة الصحافة أفادته فى بعض كتبه ، حيث حرص عند كتابته للسيرة أو فى منزل الوحى على السفر إلى أرض الحجاز أكثر من مرة وزيارة كل الأماكن التى لها علاقة بالرسول (عليه الصلاة والسلام)، وإذا كانت الرواية العربية قد اكتلمت كفن وأصبحت ديوان العرب فإن الفضل يعود إلى د. هيكل الذى شق الطريق ومهده بروايته الرائدة "زينب".

أما د. هيكل السياسى فبصماته أيضاً واضحة حتى لو اختلفنا معه فى كثير من توجهاته ولكنه سيظل النموذج الأمثل للمثقف السياسى الذى يتولى الوزارة ويرأس الأحزاب والمجالس النيابية ويدافع بكل القوة عما يراه صائباً من الأفكار والسياسات،ولذلك سيظل دوماً واحداً من أهم رواد وقادة التنوير فى مصر والعالم العربى.

عبد الرحمن الشرقاوي

شرف الإنسان الكلمة

المبدع منحاز دوما .. يشغله انحيازه .. ويشغلنا نحن إلى أين تتجه (بوصلة انحيازه) .. فالمبدع الحقيقي – صاحب الرسالة والقضية – ينحاز إلى قيم العدل والخير والجمال .. يقف على يسار السلطة، يصنع من كلماته شموسا تضئ دروب الظلمة أمام الجميع. وهكذا كان العملاق الكبير عبد الرحمن الشرقاوي مبدعا من طراز فريد يؤمن برسالته و يدافع عن قضيته التي كانت وما زالت قضية الغالبية الساحقة في كل العالم و هي (كيف تتحقق العدالة ؟) العدالة في كل صورها و تجلياتها، ورغم التطور الفكري عند الشرقاوي بداية من الماركسية وانتهاء بالصوفية المستنيرة إلا أنه كان في كل مراحله الفكرية مبشرا بالعدالة و مدافعا عن المظلومين، وقد تحولت هذه الفكرة الأساسية إلى (عمود فقري) في كل أعمال الشرقاوي ذلك المبدع الموسوعي الذي كتب الشعر والقصة و الرواية والمسرحية الشعرية والدراسات الإسلامية وقد استطاعت بصمات النشأة أن تنطبع على جينات الإبداع لدى الشرقاوي لتجعل منه ذلك المبدع النبيل – حيث نشأ في قرية " مناضلة " هي " الدلاتون " مركز شبين الكوم المنوفية ..و منذ وعى الحياة في العشرينات من القرن الماضي (ولد في ١٠ نوفمبر ١٩٢٠) كان يرى المظاهرات تنفجر من القرية و تخرج إلى شاطئ النيل (ببحر شبين) .. الفلاحون يحملون الفؤوس ويهتفون بقوة و بسالة .. يحيا العدل .. وتحيا مصر حرة .. يحيا الاستقلال التام .. يسقط الإنجليز .. يحيا الوطن.

وكان الطفل عبد الرحمن الشرقاوي يخرج مع أطفال القرية و يسيرون خلف هذه المظاهرات و يرددون بحماس نفس الهتافات و رغم أنهم أطفال لا يدركون من هو هذا العدو إلا أنهم كانوا أنه شيء فظيع من كثرة ما رؤوا و عرفوا عن الفلاحين الذين يساقون إلى سجون المدينة لأنهم – مثلا – رفضوا أن يعطوا أصواتهم في الانتخابات لممثل حكومة الإنجليز أو الحزب الذي يخدم أهدافها. كما كان الشرقاوي و رفاقه من الأطفال يرون آباءهم و أقاربهم يعملون طوال النهار تحت الشمس المحرقة أو البرد القارص وحصادهم في النهاية لا يكفي قوت يومهم. كما عايشوا الثلاثي المرعب " الفقر و الجهل و المرض " وهو يقتل الغلابة بلا رحمة أو شفقة.

وقد أتم الشرقاوي تعليمه الأولي في مدرسة القرية ثم أنتقل على القاهرة ليلتحق بمدرسة (المحمدية) الابتدائية وكان و عيه قد تفتح و عرف أن العدو التي كانت المظاهرات تخرج ضده في القرية هو الاحتلال الإنجليزي .. وعندما جاء الشرقاوي إلى القاهرة اصطدم مباشرة بهذا العدو في مظاهرات الطلبة خلال بداية الثلاثينات و تحديدا عام ١٩٣٢ عندما خرجت مدرسة الخديوية في مظاهرة تهتف بالاستقلال التام و الحرية و الدستور وسقوط الإنجليز .. وطافت المظاهرة بمدارس الحي لتخرج طلبتها و من ضمنها مدرسة المحمدية وسارت جموع الطلبة إلى دار المندوب السامي الإنجليزي و في ميدان الحلمية سد الإنجليز كل الطرق وأطلقوا الرصاص على الطلبة و سقط كثير من الصغار تحت سنابك الخيل .. و قد تجسد هذا المشهد الدرامي بكل ما فيه من وحشية و ظلم صارخ في نفس الشرقاوي فصمم على أن تكون الحياة مقاومة مستمرة و نضالا في سبيل العدل و الحرية لسحق هذا الظلم و تلك الهمجية.

وانتقل الشرقاوي إلى الخديوية الثانوية وتكررت نفس المشاهد في سنة ١٩٣٥ بدرجة أعنف، حيث تساقط الطلبة برصاص الإنجليز وانفتحت بيوت المصريين و خرجت النساء مكشوفات الوجوه(رغم وجود الحجاب في هذا الوقت) ليحمين الطلبة

داخل البيوت .. وتعمق في وجدان الفتى الإحساس بالغضب و القهر حيث رأى الإنسان ينتهك و يلقى حتفه تحت سنابك الخيل و يمزقه الرصاص لأنه يطالب بحقه في العدل و الحرية. و تفجرت في نفس الشرقاوي كل عوامل الثورة على ذلك الواقع البغيض و قرر أن يقاتل بالكلمة لكي ينتصر العدل وتسود الحرية و يأتي الزمن الذي لا تنتهك فيه كرامة الإنسان المصري .. و لم يكن قرار الشرقاوي باتخاذ الكلمة سلاحا وليد انفعال لحظي ولكنه كان نتيجة طبيعية لرحلته مع القراءة والكلمة، تلك الرحلة التي بدأت في سن مبكرة فبعد أن تعلم القراءة و الكتابة في مدرسة القرية كان يصغي في ليالي الأفراح إلى (الشاعر) و هو يغني السير الشعبية و قد هزته بعنف سيرة عنترة بن شداد ربما لأنه الفارس الذي حارب طويلا من أجل العدل و الحرية و ظل الفتى يستمع إلى تلك السير الشعبية " عنترة ، سيف بن ذي يزن ، أبو زيد الهلالي " إلى أن وقع في يده كتاب أصفر قديم هو (تاريخ الجبرتي) و الذي يقدم الحياة المصرية في يوميات و لفت نظر الفتى الصغير أن الكتاب يزخر بقصص الرجال و النساء من البسطاء و الغلابة و يقدم كفاحهم اليومي ضد الظلم و قسوة الحكام و ضد السلب و الخوف .. و ربط الفتى بين ما يحويه الكتاب من تاريخ و بين ما يراه من واقع مماثل حيث يقاتل الفلاحون البسطاء المحتل الإنجليزي .. وتحول كتاب الجبرتي إلى مدرسة تعلم فيها الشرقاوي أن الشعب المصري – بكل بساطته – يملك القدرة الخلاقة التي تجعله قادرا على أن يصنع تاريخه بيديه و أن يحطم كل أشكال استغلال الإنسان للإنسان كما تحول الواقع الذي يعيشه الشرقاوي مع كفاح الفلاحين إلى مدرسة أخرى تعلم فيها أن هذا الفلاح الفقير يملك من طاقات المقاومة ما يمكنه من أن يصوغ لنفسه المستقبل الذي يحلم به، كما تعلم أن دور الكلمة أن تصوغ في الإنسان وجدانه الذي يمكنه من السيطرة على مصيره ليصنع العالم الذي يحلم به.

و قد رسب هذا التلاقي بين التاريخ الذي قرأه الشرقاوي مع الواقع الذي يعيشه ضرورة أن تتفاعل الثقافة و الواقع و أن يلتحم الفكر و الحياة. كما اكتشف أن خلاصة التجربة الإنسانية التي يعكسها قادة الفكر بكلماتهم كانت متجسدة في كفاح الفلاحين بقريته دون أن يقرأوا لهولاء المفكرين.

المهم أن الشرقاوي خرج من تجربة معايشة كفاح البسطاء في قريته بإحساس متزايد بكراهية الظلم و حب العدل و ضرورة الكفاح في سبيل الحرية. كما تطورت رحلته مع الكلمة التي بدأها بأغاني الفلاحين والمواويل الشعبية التي ساهمت في تشكيل وجدانه و أسلمته إلى الجبرتي لتصبح سياحة في شتى مجالات المعرفة، بدأت بالتعرف على الأدب العربي أولا من خلال " طه حسين " و " العقاد " و " محمد حسين هيكل " و " المازني " ثم " توفيق الحكيم " كما أخذ يتعرف على الأدب الأجنبي من خلال ترجمات " المنفلوطي " ثم مترجمات " أحمد حسن الزيات " و " محمد عوض محمد " و مترجمات " مطران " لشكسبير و ترجمات الروايات و القصص العلمية التي كان يقدمها " محمد السباعي " و " عباس حافظ " ثم الشعر الأجنبي الذي كان يقدمه " العقاد " ثم ما ترجمه " سليم حسن " عن الأدب المصري القديم كما تعرف الشرقاوي على مسرح شوقي من خلال القراءة و المسرح و تأثر كثيرا بهذه المسرحيات مما دفعه إلى دراسة الشعر العربي القديم فحفظ المعلقات و أراجيز العرب و أجزاء كاملة من ديوان الحماسة و أشعار المتنبي و أبو تمام و أبن الرومي و المعري و يلخص الشرقاوي أهم محطات و مراحل تكوينه الفكري والأدبي فيقول (قرأت القران و تفاسيره و رأيت فيه استجابة لأشواق الإنسان إلى العدل و لعنة شديدة على الظلم) .. و أول ما أحببته من القراءة شعر الشعراء الصعاليك العرب و عندما درست اللغات الأجنبية أحببت الشعراء و الصعاليك الأجانب لأن حق الإنسان في ممارسة العدل وأن يحيا سعادته و أن يحقق بعمله كل أحلامه و أن يمنحه المجتمع الحب والفضائل.

و في الفكر العربي استهواني الثوار من أيام " علي بن أبي طالب " أولئك الذين كان لديهم الطموح في أن يحولوا الدنيا إلى جنة للحب والإخاء و أن يجعلوا شرف الإنسان أقوى من كل شيء و أن يرتفعوا فوق الطمع و الخوف .. و في هذا الإطار أيضا بهرني فكر المعتزلة و المتصوفة و شخصية " الحسين " و شعر المعري و المتنبي و ثوريات " طه حسين " و اقتحامات " توفيق الحكيم " و تفتح " إسماعيل أدهم " و " إسماعيل مظهر " و كتابات " سلامه موسى " عن الاشتراكية و الأدب و نظريات " محمد مندور " المتطورة في نقد الشعر. أما في الفكر الأجنبي فقد استهواني " ماركس " و كتابات " لينين " و تمرد " فرانسوا فيون " وصلابة " فيكتور هوجو " و تمرد " شكسبير " وأحلام الرومانتيكيين بيرون – شيللي – بلزاك – ديكنز – شو – توماس مان .. كما بهرتني كتابات يوشكين – ديستوفيسكي – تولستوي – تشيكوف – جوركي – أراجون – هيمنجواي – لوركا .. و هناك من المفكرين و الأدباء من يدفعك إلى اتخاذ موقف أخر مثل جويس – إليوت – سارتر – كامي.

و قد خرج الشرقاوي من خلال هذه الرحلة المثيرة في عوالم الفكر والأدب بنتيجة تؤكد على أن التكوين الفكري للإنسان يأتي من القراءة و الحياة معا .. أنا التكوين اللغوي فيأتي من القراءة وحدها والأهم أن واقع حياتنا و ممارستنا لهذا الواقع و محاولة صياغته من جديد هي الأشياء التي تصوغ لنا الفكر و القيم.

كما خرج الشرقاوي من رحلته في المثيرة في عوالم الفكر والأدب بتأكيد فكرته المحورية التي اكتسبها من مقاومة الفلاحين و مظاهرات الطلبة و هي ضرورة تحقيق (العدالة) . تلك الفكرة اللتي حددت توجهاته السياسية حيث بدأ رحلته مع السياسة ماركسيا و ذلك انطلاقا من مبادئ الاشتراكية والعدالة اللتي نادى بها ماركس و انضم الشرقاوي إلى المنظمات الشيوعية المصرية وانضوى لفترة قصيرة تحت لواء (حدتو) ثم قرر مبكرا أن يكون مستقلا فخرج من كل التنظيمات والمنظمات وإن ظل طوال الوقت يساريا تقدميا يقف دوما على يسار السلطة يدافع عن الغلابة و المظلومين. ثم أكتشف الشرقاوي أن الفكر الإسلامي يؤكد فكرة العدالة و يجعل منها (فريضة) فكان الفكر الإسلامي (المرفأ الأخير) الذي رست عليه المركب الفكرية للشرقاوي فانطلق إلى أفاق رحبة من الفكر والإبداع جسدته دراساته الإسلامية العبقرية والتي تحتل ركنا شديد الأهمية من مكتبة الفكر والإبداع العربي.

و بعد أن توقفنا عند أهم الملامح الفكرية والإنسانية و السياسية لدى عبد الرحمن الشرقاوي نتوقف عند أهم ملامح تجربته الإبداعية التي بدأت في عام ١٩٣٥ بكتابة الشعر التقليدي ثم أصبح واحدا من أهم رواد التجديد في الشعر العربي حيث كان من أوائل من كتبوا شعر التفعيلة في نهاية الأربعينات و توج هذا التجديد بقصيدته الرائعة والشهيرة (من أب مصري إلى الرئيس ترومان) و التي كتبها عام ١٩٥٠ وبعد أن كتب الشرقاوي الشعر في سن مبكرة اكتشف عوالم أخرى و تأكد من أن القصيدة وحدها لا تستطيع أن تعبر عن مثل هذه العوالم والعلاقات المتشابكة بين الأشخاص بعضهم البعض و بين الأشخاص و الحياة من خلال التفاعل المتطور بين الإنسان وواقعه فعبر عن كل هذا بكتابة القصة و له في هذا المجال مجموعتان قصصيتان، الأولى (أرض المعركة) و صدرت عام ١٩٥٤ والثانية (أحلام صغيرة) و صدرت عام ١٩٥٧، ثم اكتشف الشرقاوي في الرواية مجالا أرحب من القصة فكتب رواياته الأرض – الشوارع الخلفية – الفلاح – قلوب خالية، و أصبح أبرز من تناول مأساة القرية المصرية حيث تكشف رواياته عن الصراع بين الفلاحين و صغار الملاك مع الإقطاعيين والانتهازيين ذوي النفوذ و مدى تضامن أهل القرية في هذا الصراع. وتعد روايته (الأرض) درة الرواية الواقعية في الأدب العربي و قد تحولت إلى واحد من أهم و أنجح أفلام السينما المصرية أخرجه " يوسف شاهين ".

وبعد أن تنقل الشرقاوي ما بين الشعر و القصة و الرواية وجد أنه بحاجة إلى وسيط للتعبير يجمع بين القصيدة بتكثيفها و تركيزها و نبضها و بين الرواية بسعتها و تناولها للعلاقات و قدرتها على النفاذ إلى الأعماق و تصوير تدفق الحياة فكانت المسرحية الشعرية شكلا مناسبا عن هذه العوالم. و بدأ الشرقاوي رحلته مع المسرح الشعري عام ١٩٥٣ بمسرحية لم تأخذ حقها من الشهرة و الذيوع بعنوان " الأسير " عن تجربة أسر شعب مصر لملك فرنسا لويس التاسع .. و تؤكد المسرحية قدرة الشعب المصري على قهر الغزو الأجنبي حتى في حالات الانفصال بين الشعب و قادته ثم كانت مسرحيته الثانية " مأساة جميلة " عام ١٩٥٩ تخليدا لملحمة الكفاح الجزائري من أجل الاستقلال و لم تعرض هذه المسرحية إلا في عام ١٩٦٢ ثم كانت مسرحية " الفتى مهران " عام ١٩٦٣ والتي تقدم مأساة بطل يريد أن يمارس حقه في الاختيار و مأساة بشر يريدون أن يعيشوا مجتمعا عادلا. و بعد هزيمة ١٩٦٧ كتب الشرقاوي مسرحية مهمة لم تأخذ حقها من الشهرة و الذيوع بعنوان " تمثال الحرية " يندد فيها بالاستعمار الأمريكي و خداعه للدول النامية بشعارات الحرية. و مثل هذه المسرحية المهمة هل تجد من يخرجها من الأضابير ليقدمها للناس لعلها تساهم في (إفاقة العرب) بعد أن وصل خداع أمريكا بوهم الحرية إلى ذروته بعد اجتياح العراق واحتلال أراضيه.

وواصل الشرقاوي مسيرته مع المسرح الشعري فكتب " الحسين ثائرا " و " الحسين شهيدا " عام ١٩٦٨ و في هاتين المسرحيتين يعلي الشرقاوي من قيمة الاستشهاد دفاعا عن القيم الفاضلة حيث كان الأمام الحسين يؤمن بأن الموت دفاعا عن الحق خير من حياة مذعنة للباطل، و يقول الشرقاوي على لسان الحسين " طوبى لمن يعطي الحياة قيمة أغلى عليه من الحياة " أما مسرحيته الأخيرة فكانت " وطني عكا " و فيها يخلد كفاح الفلسطينيين في سبيل الحرية و العدل تحت ظروف صعبة من القهر والتزييف و الخديعة و يتسم أبطال كل هذه المسرحيات بالإحساس بالمسئولية إزاء المجتمع و العصر مع الإدراك الشمولي للعيوب والشعور الوجداني و الفكري الذي يبلغ درجة أعلى من الوعي بما يجب عمله.

و بعد أن طوف الشرقاوي مبدعا في كافة حدائق الإبداع بلغ ذروة النضج الوجداني و الفكري فجاءت دراساته الإسلامية قمة في الإبداع و شمولية الرؤيا والقدرة على تقديم الصورة المستنيرة للإسلام من خلال تقديم السيرة الذاتية لمجموعة من قادة الإسلام الأوائل يأتي في مقدمتهم " محمد صلى الله عليه و سلم " و توالت هذه الدراسات " محمد رسول الحرية – أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين – الفاروق عمر – علي إمام المتقين – الإمام الشافعي – أئمة الفقه التسعة – أبن تيمية.

و تقف دراسات الشرقاوي على قدم المساواة مع عبقريات العقاد الخالدة عن نفس هذه الشخصيات و بالطبع توجد العديد من الفروق بين عبقريات العقاد و دراسات الشرقاوي أهمها (بوصلة الفكر) حيث ظل الشرقاوي حتى النهاية اشتراكي النزعة رغم استنارته الإسلامية و كأنه يتمثل شعر أمير الشعراء شوقي في مدح النبي عليه الصلاة و السلام عندما قال (الاشتراكيون أنت إمامهم .. لولا دعاوى القوم و الغلواء) و رغم الخلافات ما بين العقاد و الشرقاوي في طريقة تناولهما لهذه القمم الإسلامية إلا أنهما ينطلقان من قيم واحدة و يؤكدان على هدف واحد و هو أن الإعجاز في هذه الشخصيات العملاقة و في مقدمتهم الرسول عليه الصلاة و السلام ينبع من بشريتهم حيث يضع الشرقاوي على غلاف كتاب " محمد رسول الحرية " هذا الجزء الموحي من القرآن الكريم " إنما أنا بشر مثلكم " و تنبع أهمية مثل هذا التوجه في أن هذه الكتب يقرؤها المسلم و غير المسلم و يقتنع كلاهما بما تؤكده هذه الدراسات من عظمة الإسلام و رسوله الكريم و قادته الكبار و نعتقد أن ترجمة مثل هذه الكتابات في الوقت الراهن

إلى كل لغات العالم سوف يعمل على إظهار الوجه المضئ للإسلام دين المحبة و السلام.

و في النهاية لم يتبق لنا في هذه الوقفة السريعة مع شخصية الشرقاوي الموسوعية مترامية الأطراف إلا أن نتوقف عند بعض المناصب التي تولاها حيث عمل بعد حصوله على ليسانس الحقوق مفتشا للتحقيقات بوزارة التربية والتعليم ثم ترك العمل الحكومي و تفرغ للكتابة و تدرج في العمل الصحفي حتى أصبح رئيسا لمجلس إدارة روزاليوسف عام ١٩٧١، ثم رئيسا لجمعية حقوق الإنسان و رئيسا لمنظمة تضامن الشعوب الأفروأسيوية و رئيسا للمركز المصري للهيئة العالمية للمسرح و رئيسا للجنة العليا للرقابة على المصنفات الفنية وسكرتيرا عاما للمجلس الأعلى للفنون والآداب بدرجة وزير وعضوا في لجنة تحكيم أكبر جوائز منظمة اليونسكو، و من المؤكد أن كل هذه الوظائف والمناصب الإدارية وفي العمل العام قد أثرت سلبا على الشرقاوي (المبدع) و رغم هذا كان و سيظل بصمة مصرية شديدة التميز و صوتا إنسانيا نبيلا ناضل طويلا من أجل الحرية و العدالة.